قصة الخلق

بقلم / عادل

قصة الخلق

كيف ولدت الأرض والقمر والشمس والنجوم وكيف حدثت ونزلت أول قدم إنسان إلى الأرض ومن أين أتى؟

كل هذه القضايا تؤثر في العلوم، فالبيولوجيا والأنثروبولوجيا والفلسفة والكيمياء والعضوية والجيولوجيا والتطور وغيرها من الدراسات، لديها بالفعل نظريات وأدلة وبراهين، وقد أصبحت هذه العلوم الآن تخصصًا مستقلًا مثل علم الأجنة وعلم التشريح، وعندما نقرأ ما يقوله القرآن عن هذه القصة، لا يمكن أن نفصل بين كثرة الكلمات وكثرة المخلوقات والأحداث والأمم..

فالدين لم يوجد بمعزل عن الحياة إلى الأبد، ولا يبدو معاديًا للعلم، بل ليزودنا بالمعرفة المطلقة ويرشدنا نحو اليقين لمقابل الاحتمال والشك والتفضيل إلى القول الحق، من المستحيل تنفيذ تعليمات دون دراسة كل شيء وتعلم المعرفة لطرح السؤال في جملة أمور ديننا وفلسفتنا وأرضنا..

فلنعود إلى الحياة وأصولها، حيث يقول لنا داروين أبو التطور بذلك لمساره في الحياة، وهي الرؤية التي غيرت طريقة تفكيره أثناء سفره حول العالم كامل على متن السفينة، واصل داروين جمع تلة من الأرض والبحر تحت الماء وفوق الماء، حيث كان يتأمل ويكتب ويجمع آراءه عن الحياة في جميع أنحاء الكرة الأرضية .

فلاحظ العديد من الملاحظات ومن أهمها :

إن ألوان وهياكل الحياة تتكيف وتتغير باستمرار لتتناسب مع البيئة، الناس في المناطق القطبية سمينون وممتلئون بالدهن، مثل حيتان البحر، لحماية أنفسهم من البرد القارس وبالمثل، فهو يرتدي معطف الفرو، وعندما كان في المناطق الاستوائية الحارة، كان نحيفًا، منهكًا، داكن البشرة، وكأنه اخترع مظلة واقية لبشرته تحجب أشعة الشمس..

ليس لدا سحالي الكهف التي تعيش في الظلام أي قدرات على الرؤية واللون، ولهذا السبب فهي عمياء وعديمة اللون، بينما تتمتع سحالي السافانا ببصر حاد، وتختلف أفواه الحيوانات حسب وظائفها فم ذو أسنان خنجر للعض كالنمر، ومنقار للصيد كالطير، وفم بخطافات للتسلق كالودودة الشخصية تقبض على جدار الأمعاء، فم بخرطوم ماص مثل الذبابة، وفم بإبرة يحقن مثل البعوضة ، وفم بمنشار ومطحنة يطحن ويطحن مثل حشرة القارضة..

هل يعني أن ديدان في الأصلي، ثم يتطور هذا الأصل ويتغير باختلاف البيئات وتصبح أنواعًا مختلفة؟

فالحيوانات التي كانت تسحب على الأرض بأرجلها الخاصة، لأنها نزلت في البحر وكانت لها أرجل متحورة، لأنها طائرة في الهواء وكانت أرجلها معدلة.

إذا كان هذا الاستنتاج صحيحا ، فإن الثعابين بلا أرجل ويكتشف التشريح عن أرجل منكمشة مخبأة داخل هيكلها العظمي، وبالنسبة للطيور التي يبدو أن لديها زوجًا واحدًا فقط من الأطراف، يُظهر التشريح أن أجنحتها الزوج الثاني من الأطراف قد تم تعديلها لتناسب وظيفتها الجديدة..

وتُظهر الأسماك التي تتحرك على البحر وتتنفس جنبًا إلى جنب مع القواقع أن رئتيها المعروفة باسم مئانة السباحة، قد تم تعديلها لاستيعاب وظيفة التنفس لحياتها الجديدة وتقع زعانف السمكة الأربع في نفس الطرف، ثم تتحول هذه الزعانف الأربعة إلى شيء يشبه المجداف فتحتوي أيديها وأصابع أقدامها على خمسة أصابع.. والقردة لديها خمسة، والفئران لديها خمسة، والسحالي لديها خمسة، وحتى الخفافيش لديها خمسة أصابع، ينكمش القلب وتسير الدورة الدموية وفق خطة محددة حتى الموت..

فالجميع مثل الفئران والقردة والخفافيش والبشر أيضا لها نفس الشرايين، ونظيراتها في كل نوع من الأنواع فالقلب هو دائمًا نفس القلب المكون من أربع غرف..

تتكون الأجهزة العصبية من الأعصاب الحسية والحركية وجهاز النخاع الشوكي هو في الأساس نفس التشابه في التكوين، والقفص الصدري الذي يحتوي على الرئة، والجهاز الهيكلي الذي يحتوي على العظام في الهياكل العظمية فكل عظمة لها نظيرتها التي تتشكل بشكل مختلف لوظيفة كل حيوان.

والجهاز التناسلي من الخصية والمبيض وقنوات التلقيح والتزاوج والرحم في الكل متشابهة، وفترة الحمل عند البشر تسعة أشهر وفي القردة العليا تسعة أشهر وفي الحيتان تسعة أشهر حتى فترة الرضاعة للجميع سنتان..

ويكشف التشريح في الهيكل العظمي العضلات للإنسان نفس فقرات الذيل التي التحمت لانعدام وظائفها الى قاع متين للحوض، وقد تدامجت وتحورت وفقرات الرقبة في الانسان عددها سبع وفي الزرافة برغم طول رقبتها أيضا سبع وفي القنفذ سبع..

يمر الجنين في رحم أمه وهو يتخلق على مراحل، في بدائه تكوينه يكون أشبه بالسماك له خياشيم وفي مرحلة أخرى ينمو له ذيل ثم يضم، وفي مرحلة ثالثة يتغذى بالشعر تماما كالقرد ثم يبدأ الشعر ينحسر عن جسمه تاركا مساحة صغيرة عند الرأس..

ثم ها هي ذي الحفريات تكشف عن جماجم بشرية ذات شكل قردي في الترنسفال وبكين وجاوة ونياندرتال وبعض هذه الجماجم وجدت في كهوف عثر بها على بقايا خشب متفحم في مواقد تدل على أن أصحاب هذه الجماجم قد اكتشفوا النار واستخدموها منذ ملايين السنين لم يبق الا أن يكتب دارون نظريته في أصل الانواع..

وابتكر دارون لنفسه تفسيراً فقال ان الترقى حدث بحوافز داخلية وبدون يد من الخارج بمجرد صراع البقاء كان التزاوج يلقى بتصانيف وتوالييف هي التي خرجت الى الحياة بأرجل مبططة كانت أصلح للعوام واستطاعت أن تستمر في الحياة المائية والحيوانات المائية الأخرى التي حافظت على التصنيف القديم للأرجل البرية انقرضت.

فعاش الأصلح والأقوى ومات الاقل صلاحية واكثر فساد، وحدث
التراقي الذي نراه تلقائيا بمجرد الحوافز الحياتية المادية ، وقامت
الزوبعة على دارون ومضت سنين وسنين من التمحيص واعادة
النظر وعاش من نظرية دارون بعضها ومات بعضها..

حكاية أن الانواع انحدرت من اصل واحد وانها تباينت الى شجرة
من الفصائل والانواع نتيجة تباين الظروف والبيئات كانت احتمالا
مرجحا أقرب إلى الصحة تقوم عليه الشواهد فالوشيجة العائلية
تربط كل الخلائق بالفعل والعلوم الحديثة تقول أنها ترتبط ببعضها
البعض بصلة رحم وقربا كما حكاية ان التراقي حدث بالحوافز
الحياتية وحدها فسقطت من غربال الفكر المعاصر..

لنتفكر لماذا يخرج من عائلة الحمار شيء كالحصان مع أن الحمار
أكثر جلدا و تحمل ! وبأي حوافز يتطور من عائلة الوعل شيء
كالغزال وهو أرهف وأضعف وأقل جلدا من الوعل..

بالمثل الحمام واليمام والطواويس والعصافير الملونة أكثر رهافة
وتهافتا من الصقور والنسور، ونشوء هذه الانواع لا يمكن ان
يفسره قانون بقاء الاصلح وانما قانون آخر هو بقاء الاجمل ولاكن
أجمل في عين من ؟

يقول هي أجمل في عين بعضها البعض ، فالذكر فيها دائما يختار الانثى الاجمل بانتقاء جنسي مازلنا أمام الحوافز الحياتية المادية، هو قول مردود على صاحبه..

إن الجناح المنقوش ليس أصلح للطيران من الجناح السادة ، لا توجد مصلحة حياتية هنا إنما قيمة جمالية عليا تفرض نفسها على جميع الحوافز ، هنا حكمة الخالق المبدع الذي يجمل مخلوقاته ، فنلمس آثاره في أغصان الشجر وألوان الزهر وأجنحة الفراش وريش الطواويس..

هذه أمور تعجز أمامها النظريات البشرية تماما ولا يفسرها الا من خلق كلى شامل ويهندس الوجود ويصممه تصميمًا وينشئه انشاء..

{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} السجدة:16

لنتصور أننا نعاني نقصا في حاسة البصر وهو نقص يجعلنا نرى الآلات المختلفة دون أن ترى صانعها مثل العربات والسيارات والقطارات والطائرات دون أن نرى المخترع لها من البشر ، سنقول أن هذه أشياء تطورت من بعضها البعض على سلسلة من المراحل ، يدل على ذلك بما بينها من تشابه لنفس الوسيلة النقل والترحال فتصبح جميعها من مادة الحديد وتركيبتها الخشب والجلد والعجلات..

وبين السيارة والقطار و الطائرة نرى أن هناك ماتور من سلندر وبستم ، مرة يشتغل بالبنزين ومرة بالبخار ومرة بزيت الديزل، لا نرى الصانع الذي صنعها جميعا..

فسنقول أنها تطورت بعوامل داخلية فيها نتيجة صراعها مع البيئة وبقاء الاصلح بعد معارك البقاء الطويلة وننكر العامل الخارجي لأننا لا نراه فنحن نرى أنها تتحرك بمحرك داخلي فيها وهذا هو الخطأ الذي وقع فيه دارون في نظريته عن النشوء والارتقاء حينما قال ان عوامل التطور هي عوامل داخلية وان الحياة تتقدم بحوافز باطنة دون أي يد ترشدها..

تتقدم بفعل الآليات المادية داخلها لمجرد أنه لا يرى يد الخالق الصانع المصور وهي تهندس نحن اذن أمام نظرية اكتشفت الوشائج العائلية بين أسرة الاحياء من نبات وحيوان وانسان ولكنها لم تستطع أن تفسر لنا كيف حدث الترقى بينها..

انتقالا إلى كلام العلم عن مبدأ الحياة بالأجماع الفلكين بدأت من الماء الذي تختموا فيه المادة وتتحلل وتتركب بقوة غير معروفة إلى الشكل البروتو بلازم لا أحد يعرف كيف نشأت الأولى وتركيباتها بنجومه وشموسه وكواكبه..

مبدأ الكون كله من سحب الغاز والتراب الأولية تكاثفت هذه السحب من الغاز والتراب بفعل الجاذبية بين ذراتها إلى أنوية في الوسط..

ماذا قال القرآن الكريم لهذه القصة منذ ١٤ قرنا وماذا جاء على لسان النبي الأمي محمد الذي لم يكن يعرف لا هو ولا قومه ولا عصره معنى كلمة بيولوجيا وبيولوجيا وكيمياء عضوية وعلم الفلك..

فالقرآن الكريم له أسلوبه المختلف عن كل الاساليب وهو حينما يشير الى مسألة بدايت التصنيع لا يفسرها كما عرضها اينشتين ومعادلاته ، ولا كما يعرضها عالم بيولوجي بالتفاصيل لشرحة وانما يقدمها بالإشارة والرمز والمجاز والعبارة التي يلقى بكلمة فيفوت فهمها وتفسيرها على معاصريه لكنه يعلم أن التاريخ والمستقبل سوف يشرح هذه المعاني بتفصيلات..

(سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَقَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)
فصلت: ٥٣ ..

الأفاقُ هي النَّوَاجِي ، مفردُها (أُفُقٌ) أن هذا وعد من الله تعالى أنه سيكشف للناس عن آياته في نواحي السموات والأرض وفي أنفسهم حتى يتبين لهم ويتقوا أن القرآن حق أنزله الله تعالى..

وقال {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران:٧]

أنه سوف يشرحه ويبينه في المستقبل الأعصر والدهور والقرون..

فماذا قال القرآن عن قصة الخلق ؟

انه يقول عن الله في البدء الاول(ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ)
[فصلت:٩]

في البدء كان شيء كالدخان جاء منه الكون بنجومه وشموسه يكور

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۗ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۗ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۗ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ
أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّارُ ﴾

[سورة الزمر: 5]

وهي آية لا يمكن تفسيرها الا أن نتصور أن الأرض كروية والليل والنهار كنصفي الكرة ينزلق الواحد منهما على الآخر بفعل دوران بل ان استعمال لفظ يكور هو استعمال يفرض علينا ان الارض كروية وليست مسطحة مثل يقال في الاقمار الصناعية..

فيقول ربنا عن القمر (وَأَلْقَمَرَ قَدَرْنَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) [يس : ٣٩] العرجون هو فرع النخل القديم اليابس لا خضرة فيه ولا ماء ولا حياة وهو تشبيه دقيق وحرفي..

بل انه يصف الفضاء بأن فيه طرقا و مجارى ومسارات ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴾ [الذاريات ٧] والحبك هي المسارات والطرق ..

ويقدم فكرة الحركة الخفية من وراء السكون الظاهر (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ) النمل:(88)وتشبيهه الجبل بسحابة هو تشبيه يقترح على الذهن تكويننا ذريا فضفاضا مخلخلا وهو ما عليه الجبل بالفعل كل شيء يتألف من ذرات..

وما يقوله المفسرون القدامى من أن هذه الآية تصف ما يحدث يوم القيامة هو تفسير غير صحيح لأن يوم القيامة هو اليقين والعيان القاطع ولا يقال في مثل هذا اليوم الجبال تحسبها ، فلا موجب لشك في ذلك اليوم..

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) [طه: ١٠٥]

هذه هي القيامة بحق ، لا مجال هنا لأن تنظر العين فتحسب الشيء قائما وهو يونسف الدنيا ولا يمكن أن تكون غير ذلك.

ثم يروى لنا القرآن بعد ذلك ما يحدث لمياه الأمطار في جوفها
 (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ)
 [الزمر: ٢١]

وهو بذلك يشرح دورة المياه الجوفية من السماء إلى سطح الأرض
 إلى جوفها إلى خزانات جوفية ثم إلى نافورات وينابيع تعود إلى
 سطح الأرض من جديد..

ويأتي القرآن ويتحدث عن الحياة في جميع المخلوقات على سطح
 الكرة الأرضية (وجعلنا من الماء كل شيء حي) [الانبياء: ٢٠]
 ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن
 يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۗ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۗ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥]..

فهو مرة يذكر أن الحياة خلقت من الماء ومرة يذكر أنها خلقت من
 تراب فيخصص ويقول من الطين أو على وجه الدقة الماء المختمر
 المختلط بالتراب الصلصال..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: 26]
 (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا
 إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ) [الاعراف: ١١]

وفي هذه الآية يحدد أن خلق الإنسان تم على مراحل زمنية خلقناكم
 ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم والزمن الإلهي أطول
 بكثير من الزمن المؤقت الذي نعيشه على الأرض..

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

[سورة المعارج: 4]

أيام الله هي شيء كالآباد بالنسبة لنا ، فلذا قال الله خلقناكم ثم صورناكم ثم اكتملت الصورة بتخليق آدم فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم معنى هذا ان آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا وأياما بزمن الله..

﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾
[الإنسان: ١] مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الانسان يساوى فيها شيئا يذكر..

يقول القرآن عن الله أنه هو ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [سورة طه: 50] أي هدى مسيرة التطور حتى بلغت ذروتها..

يكشف لنا قصة الخلق داخل الرحم ، فيصفه بأنه يتم على اطوار خلقا انه يجرى داخل ظلمات ثلاث ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة الغشاء ، كل غرفة منها داخل الاخرى والجنين في قلبها..

(يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۗ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۗ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۗ فَآتَىٰ تُصْرَفُونَ) [الزمر: ٦]

من أين جاء القرآن بهذه الاكتشافات التي اتفقت نتائج العلوم والبحوث عبر مئات السنين ؟ هل هي مصادفة !

وكيف يخطر على ذهن النبي أمي مشكلات وقضايا وحقائق لم تكن في زمانه ولا تظهر الا بعد موته بأكثر من ألف وثلاثمائة سنة..

وإذا أخذنا بالعلم الغربي الملحد الذي يرى في ذلك الكلام الذي أنزله الله على لسان نبيه صورة من نشاط عقل باطن انفتح تماما على الحقيقة المطلقة، فهذا اعترافا مهذبا جدا وعلميا بالوحي فما الحق المطلق سوى الله جلى في علاه..

وما الانفتاح على الله والاتصال به الا الوحي بعينه ، كل ما في القصة أن القرآن يزودنا بما هو اكثر من كل ما قاله العلم فيطلعنا على بعض الغيب، وما حدث في الملكوت في الملا الأعلى قبل خلق آدم ونزوله الأرضي بمرحلة سابقة لهذا الخلق..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[التين: ٥/٤]

خلق الله آدم في البدء في احسن تقويم كاملا لا عيب فيه لا يمرض ولا يموت ، وخلق له من نفسه زوجة هي حواء وأسكنه في الجنة وأسجد له الملائكة واشترط عليه لتدوم له هذه النعمة هي الا يأكل من الشجرة ، ما حدث من مراحل تطورية في الارض كان ردة وكان وعقبا الخطيئة..

كل هذا حدث في السماوات من قبيل الغيب المطلق الذي يرويه لنا القرآن ولا نحيط به علما، وقد جرى في الأزل قبل المرحلة الأرضية للوجود الأدمي..

ويروى لنا القرآن كيف أن الملائكة سجدوا لآدم الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، يقول ابليس في كبرياء وغرور مبررا عصيانه للأمر الالهي بالسجود لآدم..

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) [الكهف: ٥٠]

١٣

انه لم يدرك حكمة الله في تشريف المخلوق من الطين ، ولكن الله وحده كان يعلم ان آدم سوف يتعذب للتصارع في خلقة من الجسد ومن الروح ومن النفس وسوف يعانى عناء هائلا ويتمزق بين رغبات جسده الهابطة وسبحات روحه الصاعدة وضميره المتعالي في مكابدة مستمرة وصراع حتى يموت..

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ) [البلد: ٤]

لهذا اسجد الله له الملائكة وصخرهم لخدمته ومعونته لاقه ذلك المخلوق الذي له جسم الطين وروح الله وعلم استحقاقه للرعاية في كل أطواره ، لاكن ابليس في كبريائه فاتته هذه الحقيقة ولم يذكر الا انه خلق من نار و آدم خلق من طين وخلق قبل آدم..

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ [الحجر: 27]

نار السموم هي النار الصافية بلا دخان ومتلهبها من طاقتها، فاستحق الرجم مطرودا ، بدلا أن يرجع الى الله تائبا مترجيا رحمته ومغفرته ، يبأس تماما من هذه الرحمة ..

وهذه هي خطيئة الثانية ثم أضمر الحقد والعداء والانتقام من آدم الذي تصور فيه أنه سببا لطرده وهذه هي خطيئة الثالثة بعينها التي يحاول أن يخرج من خطيئة بخطيئة وينحدر من هاوية الى هاوية لهذا ذهب يغوي آدم بالأكل من الشجرة ويزينها له ويصورها بأنها شجرة الخلود وهو يعلم أنها شجرة الموت..

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءٌ تُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) [طه: ١٢١]

منح الله آدم الحرية وخيره في أن يختار الدخول في طاعته فيكون شأنه شأن الملائكة ، تعمل على نوااميس الله الموضوعة وتسلم..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)
[الأحزاب:٧٢]

لم يدرك مخاطر هذه الأمانة لجهله فظلم نفسه بحملها، ولأن الله يعلم مخاطر حمل هذه الامانة ويعلم أنها سوف تلقى الانسان في المهالك، بلطفاء منه ورحمة أمره بالطاعة وبالإسلام لكلمة الله بالألا يأكل من الشجرة لتدوم له الجنة..

ولكن اختار أن يكون حرا مسئولا وأن يخرج على الأمر الالهي بإغراء من ابليس فيأكل من الشجرة فوق عليه التكليف وأصبح محاسبا منذ تلك اللحظة وأستحق العقاب، فكان الطرد من تلك الجنة والهبوط إلى الارض والنزول الى التيه المادي..

هذه المرة كان على آدم أن يخرج من هذا التيه المادي في متدرج عبر خمسة آلاف مليون سنة كما تقول لنا علوم البيولوجيا وعبر مراحل وأطوار بدأت بالخلية الأولى والأميبا صعدا الى الاسفنج والرخويات والقشريات ..

في رحلة قاسية وعبر صراعات دامية مع بيئات متعددة تكافح فيها الحياة الوليدة بالمخلب والناب، انها رحلة أشبه بالخروج من الرحم من رحم الأرض ذاتها..

الفرق بين خطيئة آدم وخطيئة الشيطان، أن آدم رجع الى الله تائباً طامعاً في رحمته بينما أصر الشيطان على العصيان يائساً من رحمة الله..

١٥

أثاب الله آدم على توبته بأن هداه في رحلته الدامية أخذ بيده خارجاً به من رحم الأرض حتى وقف منتصباً على قدميه محاكياً آدم الأول آدم الصورة والمثال الذي خلقه الله في الملكوت الأعلى.. ولاكن هذه المرة يولد من جديد خليفة في الأرض يمرض ويشيخ ويموت ويكدح ليأكل ويعرق ليعيش..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۗ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۗ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]

الملائكة قالت ذلك الكلام لأنهم رأوا هذا الأدم وشاهدوه في رحلته الدموية واطواره الارضية وهو يسفك الدم ، ولكن الله يقول لهم : اني أعلم ما لا تعلمون ، وهو يعلم أن ذلك الانسان قد استحق بهذا الصراع المرير درجة أرفع من درجة الملائكة ، وأنه قد اكتسب لياقات تؤهله للخلافة..

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [البقرة: ٣١]

ها هو ذا آدم الأرضي وقد امتلك لياقات أكبر من لياقات الملائكة ونفهم من هذا أن الله قد جعل من هذا الأدم أول انبيائه فكلمة وعلم آدم الأسماء كلها ، هي بداية الوحي الأرض والتنزيل والتعليم..

والله في القرآن رب بمعنى مرب وراع ومعلم وروف ورحيم ودود
يعنى بمخلوقاته ويخلق لها الحيل والأسباب ويوفر لها الارزاق
وعد الله آدم بأرسال الأنبياء لهداية نسله..

١٦

يشرح لنا القرآن معنى اتباع الانسان لهدى الله ، ذلك بأن يفطن
الانسان الى خطئه ويعود الى الجنة التي ضيعها أبوه، جنة الطاعة
والاسلام والخلد في القانون الالهية..

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [البقرة: ٣٨]

تتكرر الآيات في كل صفحة في القرآن الكريم وتوعي بأن يفطن
الانسان أنه لا يملك الا ضميره وهو قدس الأقداس الذي تركه الله
حرا ليختار بنفسه ، فيسلمه خالصا لوجه الله ويتجه به مختارا
رضاه طائعا..

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ
حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) [يونس: ٩٩]

المؤمن يفعل هذا وقد أدرك أن مشيئة الله واقعة أن كانت طوعا
وإن كانت كرها، فالله هو الخالق المهيمن على جميع الأسباب وأنه
هو الوحيد الذي يملك الهداية والعلم والقدرة..

هناك اذن مرحلتان من خلق آدم ، آدم المثال الذي خلقه الله في
احسن تقويم ليكون الى جواره في جنته ، وادم الأرضي الذي خرج
من رحم الأرض و أسفل سافلين القى به مبعدا ، فعليه أن يكدح
ليحقق لنفسه التكامل الاول وأن يعود الى أحسن تقويم..

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) [الإنشاق: ٦]

علينا أن نسعى في الهجرة الى الله كادحين صاعدين ، فهذه هي
الانابة والرجعة صعودا من عالم الملك الى عالم الملكوت محاولة
لتحقيق المثال والكمال الاول..

١٧

كذلك آيات أخرى غامضة في القرآن تعلمنا منها أن كلا منا نحن
ذرية آدم قد عشنا هاتين المرحلتين فنقرأ في سورة الاعراف :

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا
عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) [١٧٢]

الله سبحانه وتعالى يفصل لنا في هذا الآيات واقعة غريبة ، يفهم
منها اننا كنا من قبل النزول الى الارحام في عالم المثال والملكوت
ربما كأرواح كأنفس لا أحد يعلم ، وان الله اشهدنا على ربوبيته
وأخذ منا ميثاقا بهذا الشهود حتى لا نكفر ونبرر كفرنا بأننا ضحية
لأبائنا ، ونعود فنقرأ عن هذا الميثاق..

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مٌصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ
عَلَىٰ ذُلِّكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا ۚ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ ﴾ [أل عمران: ٨١]

في آيات كواشف تشير الى مرحلة روحية ، فكانا لأنبياء مجتمعون
ليأخذ الله عليهم ميثاقا غليظا بأن يؤيد بعضهم بعضا كيف كان ذلك
وأين ، كان في الملكوت الرباني قبل النزول الى الأرحام..

لهذا فإنه كان لنا ثمة وجود قبل الميلاد ، كما أن لنا وجودا بعد
الموت ، شأننا في ذلك كشأن آدم الذي بدأ حياته في أحسن تقويم ثم
أنزل إلى أسفل سافلين ليعاني محنة الاختبار وليحكم عليه بأن

يرتفع إلى الله جهادا وكدحا جزاء له على كفره للنعمة التي كان فيها..

١٨

وفي حديث شريف يشير نبينا محمد عليه الصلاة والسلام إلى هذا الوجود الروحي السابق للميلاد حينما يقول : كنت نبيا و آدم بين الروح والجسد..

ويقول الله في القرآن لنبيه محمد : (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ^طوَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) [الأنعام : ١٦١/١٦٢]

آيات تدل على وجود روعي بسبق الوجود المحمدي على جميع الانبياء و يعتبر القرآن جميع الانبياء مسلمين ومحمد أولهم عليهم السلام..

فاذا عدنا الى الشجرة التي أكل منها آدم لنسأل ما هي هل هي رمز ام حقيقة ؟ وجدنا أمامنا اختلافا كثيرا ، يقول بعض المفسرين أنها شجرة المعرفة وأنها رمز ، فهو تفسير غير مقبول فالله لم ينه الانسان عن طلب المعرفة بل على العكس كان يحث على طلب العلم..

والبعض أخذها بحروفها بدون تأويل على أنها شجرة لها ثمر أشبه بما نرى حولنا من فواكه الدنيا ، والبعض قال هي شجرة الحنطة أكل منها آدم فجرى عليه ما علينا من قضاء الحاجة لطرده الفضلات وهكذا انكشفت له عورته وطفق يخصف على عورته من ورق الجنة كما جاء..

أنا أرى أنها رمز للجنس والموت اللذين تلازما في قصة البيولوجيا
حينما أخذت الكائنات الحية بطريقة التلاقح الجنسي لتتكاثر فكتبت
على نفسها طاريء الموت..

١٩

لم تكن الكائنات قبل ذلك تموت بل تتجدد و تعود بالانقسام الذاتي ،
فكان التلاقح الجنسي هو الشجرة المحرمة التي أكلت منها الحياة
فهوت من الخلود الى العدم..

وبالمثل كان زواج آدم وحواء هو زواج اثنين من الخالدين في
الجنة ، وفي مثل هذا الزواج لم تكن توجد وظيفة للنكاح والتلاقح
الجنسي فالخلود حقيقة قائمة ولا حاجة للنسل لإستمرار الحياة..

وكان الشيطان يعلم أن شجرة النسل هي ايزان ببدء الموت من جنة
الخالدين فكذب على آدم ووسوس له أنها شجرة الخلود بعينها أغراه
بأن يخالط زوجه بالجسد..

ومما يدل على أن الشجرة رمز للجنس ما يروى القرآن عن آدم
وحواء بعد تذوق الشجرة وكيف بدت لهما سوءاتهما ، فالسوءة هي
العورة ، وكيف طفقا يغطيانها بأوراق الشجر خجلا..

الخجل من الأعضاء التناسلية لا يأتي الا بعد تذوق اللذة منها ولهذا
لا يخجل الطفل من أعضاء التناسلية ولا يغطيها بينما يخجل البالغ
حتى من ذكر مسماها..

ثم نرى القرآن يخاطبهما بعد تذوق الشجرة على أنهما جمع فيقول :
(قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ
إِلَىٰ حِينٍ) [الأعراف: ٢٤]

بينما كان الخطاب قبل الخطيئة إلى مثني :

(وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) [الأعراف: ١٩]

٢٠

معنى هذا أن الأكل من الشجرة أدى إلى التكاثر، ومازالت اللذة
الجنسية الى الآن رمزا للتهابط الدنيوي ومازالت مناط الاغراء
والسقوط ..

ليس البهيمية لذا أن شريعة الطهارة وقطع الغلفة الزائدة من العضو
التناسلي كانت الكفارة التي قضى بها آدم على نفسه بعد الخطيئة
كمحاولة للخصاء تقزراً مما فعل..

فأصبحت تقليدا دينيا من يومها ، ولا يوجد مانع من أن تكون
الشجرة هي شجرة تؤكل بالفعل فتؤدى الى اطلاق الهرمونات
واشتعال الرغبة الجنسية ومن ثم تلقى بآدم الى المخالطة الجنسية
حرفيا فلا يمكننا القطع في هذه المسائل يجب أن نقول أن الشجرة
مازالت لغزا ..

فقصة الخلق ما زالت من أمور الغيب لا نستطيع أن نقول فيها أكثر
من الاجتهاد والله أعلم واحكم بكتابه وهو وحده الذي يعلم تأويل ما
فيه من قصص واحكام..

كما يحدثنا وحي القرآن الكريم في قصة خلق السموات والاراضين
السبع فيقول الحق سبحانه:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ
بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عِلْمًا) [الطلاق: ١٢]

(الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن
تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ) [الملك: ٣]

٢١

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)
[المؤمنون: ١٧]

فخلق الله السماوات السبع سر لا يفهمه العلم ، ولكن هناك أمرا
مثير يكشفه لنا العلم، مثلا أن الضوء سبعة ألوان فهي ألوان الطيف
وسبع درجات من الأطوال الموجية من الأحمر إلى البنفسجي ثم
يعود فيتكرر السلم في سبع درجات أخرى من تحت الأحمر لفوق
البنفسجي..

واكتمال تكوين الجنين في الرحم سبع اشهر، وعدد أيام الأسبوع
سبعت أيام ، بالمثل السلم الموسيقي سبع درجات ثم تعود الثامنة
فتكون جوابا للأولى وهكذا تتكرر النغمات سبعت..

هل معنى هذا أننا سوف نكتشف يوما ما أن الوجود مرتب سبع
درجات في جميع حالاته نفسه من أسفل سافلين الى أعلى عليين
وان هناك سقما يكرر سبع سماوات وسبع أرضين..

ما نفسر في القرآن من هذا العلم تفكري ومجرد احتمال ، لكنه
يشير إلى أن اسرار لا يمكن المرور بها مرورا هينا ، وانها تحمل
مدلولات غاية في العمق..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) [المؤمنون: ١٢/١٤] .